تيمة الأم في الرواية العربيّة

دراسة تحليلية مقارنة لتيمة الأمومة في الرواية العربيّة

Le thème de la mère dans le roman arabe

Une analyse comparative de la maternité dans le roman arabe

The theme of the mother in the Arab novel

A comparative analysis of motherhood in the Arab novel

د/ عبد الرحمان بن يطو

جامعة محمد بوضياف . المسيلة

benyettouabr60@gmail.com

الملخـص :

وظّفت الرواية العربيّة منذ نشأتها الأولى أشكالا متعدّدة من الشّخصيات النّسويّة من مُختلف الفئات العُمريّة والانتماءات الاجتماعيّة والثّقافيّة ، وتكاد تشكّل المرأة الأطروحة المركزيّة للرواية العربيّة ، تحرّك الأحداث الروائيّة وتُحفّز على دينامية السّرد ،

وما نريد قوله هنا يختلف تماما عمّا قيل عن المرأة في صورتها المُهيمنة على النّص الروائيّ ؛إذْ يتعلّق الأمر هذه المرّة بتيمة المرأة الـ (أمٍّ) ،ككائن جامع لكلّ الصفات الجميلة في هذا الكون ، و ما حملني على الكتابة عنها هو حضورها القويّ في حياتنا اليوميّة وغيابها في نصوصنا السّرديّة ؛ بحيث انصرف عنها الروائيّون ولم تعد تشكّل لهم انشغالا إبداعيّا خاصّا، ربما لأنها تنأى بنفسها عن النّزعة الجسدانيّة التي اعتادت الكتابة الروائية بشقيْها النسائيّ والرجاليّ الرهان عليها ،فالأمّ التي نريد الحديث عنها هي مصدر المحبة التي لا تنتهي والعطاء الذي لا ينضب والخير الذي لا حدود له في الحياة . وحاولنا قدر الإمكان من خلال بحثنا أن نلاحق بعض النّماذج الرّوائيّة المتباينة في منظوراتها لرمزية الأمومة لدرجة الاختلاف في الرواية العربيّة .

الكلمات المفتاحية: الأمومة ، الرّمزيّة ، الذّكوريّة ، الاستعاريّة ، الهُوية ، الرواية .

Résumé

Depuis sa création, le roman arabe a employé de nombreuses formes de figures féministes de différents groupes d'âge et milieux sociaux et culturels ; les femmes ont constitué presque la thèse centrale dans ce roman, qui déplace les événements narratifs et stimule la narration

Ce que nous voulons dire ici est assez différent de ce qui a été dit à propos des femmes dans leur forme dominante du texte narratif, cette fois-ci il s'agit de du thème de la femme « mère », en tant que collectionneur de toutes les belles qualités de cet univers et que les romanciers ont quitté et n'ont pas constitué un souci créatif particulier, peut-être parce qu'elle s'est distanciée de la tendance physique que l'écriture romancière avait l'habitude de traiter sous ses deux constituants chez les femmes et les hommes ; ainsi, tout le pari pesait sur elle. La mère dont nous voulons parler est la source de l'amour infini, du don sans fin et du bien illimité dans la vie. Dans la mesure du possible, nous avons essayé de suivre certains des différents modèles de variation du symbole de la maternité dans le roman arabe.

Mots-clés Maternité, symbolisme, masculinité, métaphore, identité, roman

لا يختلف اثنان على أنّ الأم هي منبع الحياة ، فلا حياة دون الأم ؛ فمن بطنها خرج الابن مخلوقا ضعيفا إلى الحياة ورعَته حتى استوي عوده ، بل وتبقى ترعاه بعواطفها ومشاعرها مهما تقدّمت به العُمر وارتقت به أسباب الحياة الاجتماعية ، وقد أولت كل الشعوب بمختلف إثنياتها ودياناتها وثقافاتها اهتماما خاصا بها تتفرّد به عن غيرها من الكائنات. ففي الدّين الإسلاميّ جُعلت الجنة تحت قدميْ الأم تكريما لها لقول رسول الله (ص) :" الجنة تحت أقدام الأمّهات " و قال عنها الأرمن : "عندما تموت الأم ، فإنّها تأخذ معها الشّمس " ، بينما قال عنها الهنود : " عندما تموت تأخذ معها ضوء الحياة " ، وقال عنها الروس : " إنّها تأخذ معها الطفولة " ، وفي الشّريعة اليهوديّة يُنسب إليها المولود وليس إلى الأب ، وقد تكون من أسباب دواعي حبّ الإنسان لأمه كونها أول إنسان فتح عليه عينيه وأول اسم نطق به في الوجود هو (أمي) ، فهي ترتبط دوما بالحنين إلى طفولة الإنسان الأولى .ومن فقد سند الأم عاش طفولة ملؤها الحرمان مهما توفّرت له من أسباب الحياة الماديّة ، فالأم مدرسة ؛ ففيها يتعلّم الإنسان أبجديّات الحياة الأولى ، قبل أن يواجه المجتمع بكلّ إكراهاته ومتاعبه ، وصدق حافظ إبراهيم حين قال :

" الأم مدرسة إذا أعددتها *** أعددت شعبا طيّب الأعراق "

وقد ارتبطت الأم بالأرض كرمزية للهُوية والانتماء ولذا اختير لها أول يوم من أيام فصل الربيع كيوم يُحتفى به وهو(عيد الأم) الذي يصادف 21 آذار/مارس من كلّ عام . والمقصود هنا الأمّ المتّحرّرة من قيود المجتمع التي صمّمتها الذّهنيّات الذّكوريّة ، وباعتبار أنّ الأم هي امرأة قبل كلّ شيء،فإنّه لا يستقيم الحال أبدا إذا تحدّثنا عن أمومة تعيش في ظلّ الأغلال الاجتماعيّة وربما هذا الذي أراد جورج طرابيشي الإشارة إليه قائلا : "كم تخسر المرأة باعتبارها إنسانا حين تتحوّل إلى رمز لوطن ، وكم يخسر الوطن نفسه حين يرمز له بكائن لا حرية له" .(1)

لكن ما يهمنا في هذه الورقة البحثيّة هو اقتفاء أثر الأمومة في الرواية العربية ، من خلال مقارنة بعض صور الأمومة التي نراها غير موحّدة في منظوراتها التي تتناولها الأعمال الروائيّة العربيّة لدرجة التّناقض أحيانا ، رغم المرجعيّة المشتركة بين شعوبها العربيّة ثقافيّا وتاريخيّا واجتماعيّا . وقبل ذلك علينا أن نشير إلى أهمّ عمل روائيّ عالميّ احتفي بالأم في صورتها الاستعاريّة الرّاقية ، هي رواية (الأم) للروائي الروسيّ العالمي مكسيم غوركي .(1868 . 1936) ، حيث استعار صورة الأم كإطار جامع للهوية والوطن والانتماء ، وتُعدّ هذه الرواية واحدة من أحسن السّرديّات العالميّة ، التي تحضّ على الثورة والتّمرّد ضدّ الحكم القيصريّ الظالم في روسيا أوائل القرن الماضي ، فجاءت رائعة (الأم) كمرافعة تاريخية ضدّ الإنسان الذي يستعبد أخاه الإنسان . إذْ تروي قصة زوج عربيد استعبد زوجته و أم ولده التائه والمتطلّع إلى واقع أفضل ،بحيث تتماهى في الأخير صورة الأم بصورة الوطن الموعود وفيه تتحدى كلّ العقبات لتصنع منها مشهدا بطوليا في الإنسانية والحرية و الانعتاق .

ومن أحسن الروايات العربيّة في تقديري التي تحتفي بالأمومة ، نذكر شخصية الأم (أمينة) في ثلاثية نجيب محفوظ (1911 . 2006) ، (قصر الشوق) ، (بين القصرين) ، (السّكرية)، إذْ خلّد الكاتب برمزية ذات قيم عالية الأم المصرية المثالية المعروفة بالصبر وكتمان سرّ زوجها والمحافظة على تماسك أسرتها رغم النّزعة الاستبداديّة التي تطبع زوجها السيّد أحمد عبد الجواد ، الذي يتظاهر أمام الناس بالوقار والهيبة والاحترام نهارا ، والسكير والعربيد وزير النساء ليلا ، وقد منحها نجيب محفوظ دورا طلائعيّا من بين عشرين شخصية نسوية في الرواية ، بحيث تعاصر هذه المرأة أربعة أجيال من العائلة تغطي فيها كل

مراحل الرواية وميلاد المولود الذي يمثل الجيل الرابع تموت أمينة وبموتها تنتهي الرواية . فنستطيع القول إنّ شخصية أمينة كانت بمثابة " دائرة الحياة تربط بين أجزاء الرواية الثلاثة ، فتشهد نهاية بين القصرين وفاة فهمي وميلاد نعيمة ، بينما تشهد نهاية قصر الشوق وفاة ابني عائشة وزوجها وميلاد كريمة بينما تشهد السّكرية وفاة أمينة وميلاد ابن كريمة ." (2) ، وقد أبدع نجيب محفوظ في توصيفها وتوصيف مراحل حياتها ، بحيث منحها اسم أمّه الحقيقيّة (أمينة) واهتمّ بكلّ حركاتها وسكناتها ، متعاطفا معها " كانت في الأربعين متوسطة القامة ، تبدو كالنحيفة ، ولكن جسمها بضّ ممتلئ في حدوده الضيّقة لطيف التّنسيق والتّبويب ، وأمّا وجهها فمائل إلى الطّول مرتفع الجبين دقيق القسمات ، ذو عينين صغيرتين جميلتين ، وتلوح فيهما نظرة عسلية حالمة ، وأنف دقيق يتّسع قليلا عن فُتحتيْه ، وفم رقيق الشّفتيْن ينحدر تحتهما ذقن مدبّب وبشرة قمحيّة صافيّة تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقي . " (3) ، ولأنّ أمينة تحمل على عاتقها كلّ هموم الأسرة بما فيها زوجها السيد أحمد عبد الجواد الرجل المستبد والتاجر الجسور في السوق والمواظب على الصلوات في المسجد والجدّ الوقور ذو التاريخ المشرف في نضاله ضدّ الاحتلال الإنجليزي إلاّ أن كلّ هذه المظاهر تُخفي من ورائها سرّا عظيما لا تعرفه إلاّ زوجته أمينة رفيقة حياته ، فهو يأتي متأخرا كلّ ليلة سكيرا عربيدا يقضي سواد ليله رفقة أصدقائه في شقة خاصة مع كبار التّجار في اللهو والمجون ،وتبقى أمينة ساهرة طوال الليل تنتظر عودته المتأخرة ، وتحرص كلّ الحرص على ألاّ يتفطّن له أيّ أحد من أفراد العائلة الممتدّة ؛ حتى لا تُفتضح حقيقة أمره .وقد انعكس هذا الشقاء على صحتها و على هيئتها الخارجيّة " ومع أنها لم تبلغ الستين إلاّ أنّها بدت أكبر من ذلك بعشر . " (4)

أمّا في رواية " بداية ونهاية " فكانت أرملة كامل أفندي وأم أولاده الأربعة أمّا أنموذجيّة في التّضحية و الكفاح والوفاء لزوجها المتوفّى كلّ ذلك من أجل تحمّل عبء مسؤولية تربية أولادها الأربعة في غياب والدهم " فهي ... مصدر ومنبع كلّ جمال معنوي أو أخلاقي فيهم ، والمؤلّف لا يذكر اسمها ولا اسم شقيقتها إمّا تحرّجا أو تأدبا على عادة أهل زمانها ، وإمّا لتظلّ تجسيد حي لصفات الأم المثالية والمرأة الناجية في الرواية وغيرها من روايات المؤلف ، والمؤلّف يحفظ لها هذه الصورة النقية الباهرة والثابتة على طول الرواية " (5) ، فكانت على حدّ تعبير نجيب محفوظ بعد أن ضاقت عليها دوائر الحياة الاجتماعيّة "الأم وحدها كانت عصب الأسرة " .(6)

ومن المؤشرات الدّالة على أنموذج آخر مختلف لصورة الأم في الريف السّوداني ما ذكره الكاتب الطيب صالح في رواية " موسم الهجرة إلى الشمال " عن علاقة الشّخصية المركزية مصطفى سعيد بأمّه ، وفي لحظة حميميّة جاء يودّع أمّه لحظة سفره إلى القاهرة ، قال بطل الرواية عن أمه : " كانت كأنها شخص غريب جمعتني به الظروف صدفة في الطريق " (7) ، كانت علاقتهما بيولوجية ووظيفيّة في هذه الحياة ، مُفرغة من أيّ إحساس إنسانيّ قد يجمع الأمّ بابنها خاصة في مثل هذه المواقف المؤثرة والتي عادة ما تحرّك المشاعر المترعة بالأمومة التي لا توصف " لا دموع، و لا ضوضاء، مخلوقان سارا شطرا من الطريق معا، ثم سلك كل منهما سبيله" (8) تذكّر هذه المشاعر المخشّبة بما استهلّ به الروائي الفرانكو جزائري ألبير كامو روايته (الغريب) بصيحة صادمة يقول فيها : " اليوم ماتت أمّي، أو ربما البارحة، لا أدري " ،توحي بفتور مشاعر الراوي (ميرسو)لأعزّ مخلوق له على وجه الأرض أو من المفترض أن يكون كذلك .

وفي رواية (ريح الجنوب) للروائي الجزائري عبد الحميد بن هدوقة ، كانت شخصية خيرة أم البطلة الطالبة الجامعيّة نفيسة وزوجة الإقطاعي عابد بن القاضي رمز للأم الجزائريّة التّقليديّة الرّيفيّة المستسلمة لإرادة زوجها الذي لا يُردّ له طلب ، ولا يمكن أن تواجهه مهما تمادى في غيّه لأنّ هذه هي الأعراف الاجتماعيّة والتّقاليد المتوارثة التي يقتضيها نظام الحياة في الريف الجزائري ذي النّزعة الذّكوريّة ،حيث تعلو في هذا المكان كلمة الرجال فقط . وحين تأزّمت الأمور بين ابنتها نفيسة وموقف والدها المتعنّت ؛ الذي يرغب في تزويج نفيسة من رئيس البلدية مالك ؛ عساه بعلاقة المصاهرة هذه قد يجنّبه صهره المفترض تطبيق عليه قانون الثورة الزراعيّة الداعي لتأميم الأراضي تحت شعار (الأرض لمن يخدمها) وليس لمن يمتلكها. فكانت الأم خيرة تحرص على أن تمسك العصا من الوسط فلا هي تريد أن تُغضب زوجها المستبد برأيه ، وفي نفس الوقت تحثّ ابنتها على ضبط النفس و ألاّ تُغضب والدها وتكسّر كلمته أمام الناس ، فالمرأة في مثل هذه البيئة لا تُستشار في أيّ أمرٍ كان حتى ولو تعلّق الأمر بموضوع زواجها ، هذا شأن يتكفّل به الرجال وحدهم دون غيرهم ،والنساء يخضعون وينفذّون فقط ، ومن هنا نستشفّ صورة الأم خيرة امرأة مستكينه خاضعة لإرادة زوجها لم تستطع الوقوف إلى جانب ابنتها حتى في أصعب المواقف . وهذا ما عبّرت عنه نفيسة في أحد المواقف الانفعاليّة قائلة عن ظروف المرأة في بيئتها الريفية : " .. هذه المرأة التي في الإرث لها نصف حظّ الرّجل وفي الحياة لا حظّ لها معه مطلقا ." (9)

بينما الطاهر وطار في رواية (رمانة) قدّم لنا صورة غير نمطية لهذه الفتاة الجزائرية الفقيرة التي تسكن البيوت القصديرية ضواحي العاصمة ، والتي امتهنت أقدم مهنة في التاريخ (10) ؛ وهي بائعة الهوى ولكن من حظّها أنّها استدرجت في آخر الرواية لتلتحق بعناصر ثورية ويتغيّر مسارها في الحياة من الإيجاب إلى السّلب .لكن قبل ذلك كانت أمّ رمانة امرأة ترتزق من بيع الرّذيلة وقد أورثت هذه المهنة لابنتها رمانة (11) وقد برّر الكاتب امتهان هذه العائلة الفقيرة المنحدرة من الشرق الجزائري بالفقر والعوز والأمية المتفشية بين الجزائريين نتيجة ظروف الاستعمار التي تكرّس البؤس والجوع ،لكن كما سبق وأن أشرنا كان الالتحاق بصفوف الثورة التّحريرية كالماء المقدّس الذي غسل رمانة من جرائرها.

وفي رواية (الوتد) ركّز الكاتب على عنصرين أساسيين هما : المرأة والريف ، فالمرأة في الريف تزداد أعباؤها في الحياة أكثر من المرأة في المدينة ، ولذا أنصف الكاتب شخصية الأم من أول عتبة له في النّص الروائي وهي العنوان (الوتد)، ويعني العمود الذي تبنى عليه الخيمة وبسقوط العمود تسقط الخيمة كبيت تأوي إليه الأسرة في انسجام وتآخٍ وحميميّة لا نظير لها ، ,وأراد الكاتب أن يقول أن شخصية الأم (الحاجة فاطمة تعلبة) ، هي كالشجرة أيضا يستظل بها أعضاء الأسرة الذين يشكّلون فيما بينهم مجتمعا صغيرا داخل المجتمع الكبير ؛قائما على الوحدة والتّضامن والتّكافل بينهما ، وقد أمعن الكاتب خيري شلبي في وصف هذه المرأة العجوز التي تحمل كلّ تقاسيم المرأة المصريّة الريفيّة المكافحة من أجل أسرتها مهما قست عليها الظروف . " كثيرا ما تمنى أبناء الدار موت الحاجة (تعلبة) .مع ذلك ما تكاد تلم بها وعكة صغيرة حتى تنقلب الدار كلّها كأنما القيامة على وشك أن تقوم . يجيء حلاق الصحة وينصرف عددا من المرات .ويحضر القريب والبعيد من الأقارب والأصهار والمعارف حتى لتصير الحارة كلّها . وهي كلّها بيوتنا . زريبة كبيرة تضيق بركائبهم التي يبدو عليها الحزن هي الأخرى ." (12) ، أمّا في ثلاثية الكاتب الجزائري محمد ديب (1920 . 2003) التي تعدّ أوّل رواية تتنبّأ بالثورة على الاستعمار الفرنسيّ ، تقدّم لنا أنموذجا

متفرّدا عن الشخصية النسويّة الجزائرية التي تضطلع بدور المرأة الأمّ في ظلّ الاحتلال الفرنسيّ وما تعيشه الأسرة الجزائريّة من شقاء إنسانيّ وفقر وبؤس من جرّاء ممارسات الإدارة الفرنسيّة و ظهيرها من المستوطنين الفرنسيين الحاقدين ، إذْ كانت عيني امرأة جزائرية الهوى و الهُوية ؛فقدت زوجها وهي في ريعان الشباب وتحمّلت أعباء الأسرة زيادة على والدتها العجوز القعيدة ، فهي تلعب دور الأب كسند ماديّ ودور الأم كطاقة معنويّة وعاطفيّة للأسرة يضاف إلى ذلك شروط الحياة القاسية في دار السبيطار حيث تجتمع عائلات جزائرية كثيرة في هذا السكن الضيّق وما يسبّبه من احتكاك بين السّكان نتيجة الضّغط الاجتماعيّ والسياسيّ ،" تشبه دار سبيطار أن تكون بلدة رحابها الواسعة جداً تجعل من المتعذر على المرء أن يقول ما عدد السكان الذين تؤويهم على وجه الدقة، حين شق قلب المدينة، وأقيمت شوارع حديثة، حجبت العمارات الجديدة وراءها تلك المباني القديمة المبعثرة التي بلغت من تراصها أنها تؤلف قلباً واحداً: المدينة القديمة، ودار سبيطار الواقعة بين طرق ضيقة صغيرة ملتوية كأغصان النبات المتعرش. " (13) وتحت تأثير هذه الظروف وجدت الأم عيني نفسها تكدح ليل نهار وتعيش المعاناة والشقاء بكلّ تفاصيله ، فولّد انطباعا عن شخصيتها متمثلا في لسانها السّليط الذي لا يتوقّف عن السّب والشّتم بحيث لا ينجو منه أحد لا أولادها ولا حتى والدتها المشلولة " كانت عيني منتصبة على ركبتيها تقذف حقدها في وجه الجدة " .(14) ، فكانت المرأة تندب حظّها في الحياة ، في زوج قد مات بمرض صدريّ نتيجة عمله المضني ، ولحق به ابنه الجيلالي بعد سنتين بنفس المرض وبقيت تعيل أولادها عمر وأختيه عيوشة ومريم وعجوز قعيدة لا تفارق فراش المرض ويضاف إلى ذلك احتكاكها المستمرّ مع الجيران نتيجة ضيق المكان وضغط العمل الذي سبّب لها تعبا آخر ،ورغم الصورة السلبيّة التي رسمها الكاتب عن شخصية عيني ، إلاّ أنه بالمقابل يمكن تفسيرها بأنموذج المرأة الجزائرية المكافحة من أجل لقمة العيش الممزوجة بعرق الجبين ، والتي أنجبت الطفل عمر الذي استطاع محمد ديب أن يؤثّثه بقيم الوطنيّة والثّورة التي استلهمها من الواقع المعيش المرير ؛حيث شبّه الطفل يوما هذا الواقع بالسجن الكبير، لاحظ عمر ذلك في المدرسة والشارع ومن خلال احتكاكه بأبناء المستوطنين وأبناء المقربين من الإدارة الفرنسيّة ، حيث مظاهر الظلم والتّفرقة بين الجزائريين وأبناء المعمرين وأذنابهم .و تعلّم أيضا من خطب المناضل الكبير حميد سراج كثيرا من المعاني التي لا يفهمها إلاّ الكبار ، هذا الرجل الذي تطارده الشرطة الفرنسيّة وأعوانها في كلّ مكان ، لا لجريمة ارتكبها سوى لأنه يقوم خفية بنشر الوعي السياسي والوطني بين صفوف الشعب الجزائري ، فالطفل (عمر) ولد من رحم الشقاء الاجتماعيّ والإنسانيّ ،ومن عمق هذا الشقاء ولدت شرارة الثورة التّحريرية ، وصدق من قال : " العظماء أبناء أُمّهاتهم " ، فبفضل أبناء هؤلاء الحرائر الجزائريّات أمثال عيني ؛والمتشبّثات بقيم الوطن والانتماء قُهر الاستعمار الفرنسي واستعادت الجزائر حريتها وكرامتها .

يمكن أن نصنّف رواية (الخبز الحافي) للروائي المغربي محمد شكري (1935 . 2003) ، ضمن الواقعيّة المبتذلة إذْ بالغ صاحبها في استعمال اللغة العاميّة المغربيّة الممزوجة باللهجة الريفيّة الأمازيغيّة مع كثير من الألفاظ الفرنسيّة والإسبانيّة و ما يصاحبها من صُور الابتذال والعنف اللفظي ؛بحيث حدّد الكاتب من البداية فضاءه الذي تجري فيه أحداث الرواية وهو فضاء أسفل المدينة لتفعيل شخصياته الروائية الموسومة بالانحراف الجنسي والدعارة وتعاطي المخدرات وكل الآفات الاجتماعيّة ، لكن ما يهمّنا هنا هو جرأة الكاتب التي لا حدود لها في استعمال التّعابير القدحيّة المنحطة التي تخدّش الحياء العام وتمسّ بالنسق

الاجتماعيّ العربي والمغربي على وجه الخصوص، وهو استعمال لا مبرّر له في الرواية ، قد يُراد به فقط الخروج عن المألوف ، وإذا كانت هذه الرواية السيرذاتيّة تتحدّث عن معاناة أسرة مغربيّة قادمة من منطقة الريف المغربي ذي الأصول الأمازيغيّة ، في أيام قحط وجفاف وفقر، وما تعرّضت له الأسرة من جوع وبؤس حتى تسبّبت هذه القسوة الاجتماعيّة والطبيعيّة في هلاك أحد أبنائها ، وقد رافقت هذه المآسي الأسرة في طريق رحلتها إلى أن استقرّ بها الحال في مدينة طنجة ، لتواجه ظروفا أسوأ حالا ،عمّا كانت عليه ،تسكن أدنى المأوى وتضطرّ لتقتات من فضلات القمامة أحيانا يضاف إلى ذلك الضغوط النّفسية والاجتماعيّة و ما يصاحبها من ملفوظات منحطّة و عنيفة على سمع الطفل ،صادرة عن الأب السكير والموجّهة إلى الأم تارة وإلى الابن تارة أخرى ، كلّ ذلك في تقديري ليس مبرّرا للكاتب أن يستبيح عِرض والديْه ، وإذا كانت علاقته مع والده مختلّة منذ البداية ، فإنّ علاقته بوالدته غير ذلك فقد عانت في سبيله وسبيل إخوته مرارة الحياة من خلال بيعها سلال الخضر والفواكه في السوق العمومية لتأمين أدنى مستوى من العيش لهم .لكن كلّ هذا لم يشفع لها عند هذا الابن العاق، الذي اشتدّ عوده وصار كاتبا ، بحيث جعل من لغته القصصيّة مادة قدحية استباح فيها عِرض والديْه والعجيب لم تفلت أمه من هذه التّعابير السّوقية المبتذلة التي وجّهها الكاتب إليها ؛ الأم التي حملته جنينا في بطنها وأرضعته صبيا في حضنها يضاف إلى ذلك أحسنت إليه طوال أحداث الرواية ومع ذلك أنكر كلّ فضائلها ، هذه التّعابير الشّواهد التي حرصنا قدر الإمكان أن نتحاشى ذكرها لكونها مسيئة لرمزية الأمومة بمفهومها الأنطولوجيّ من جهة ،ومن جهة أخرى تقدّم لنا أنموذجا مخالفا تماما للنماذج السابقة الذكر؛ إذْ يقول : " أبي يعود كلّ مساء خائبا نسكن في حجرة واحدة أحيانا ننام في نفس المكان الذي أتقرفص فيه ، إنّ أبي وحش ، عندما يدخل لا حركة ،لا كلمة إلاّ بإذنه كما هو كلّ شيء يحدث إلاّ بإذن الله كما سمعت الناس يقولون . يضرب أمي بدون سبب أعرفه .سمعت مرارا يقول لها :

. سأهجرك يا ابنة (..) دبري أمرك وحدك مع هذين الجروين ." (15) ، وفي مشهدٍ مُخزٍ وعارٍ من أيّة قيمة أخلاقيّة ،يصف لنا بعض المشاهد المحظورة اجتماعيّا بين والدته ووالده ليلا : " تعود أمي من السوق ، أحيانا يغيب أبي يوما أو يومين ، حين يعود يتشاجران ، غالبا ما كان يدميها ، لكنني في الليل أسمعهما في الفراش يتضاحكان ويتأوهان ، بدأت أعرف ما كان يفعلان ..." (16) ولا نجافي الحقيقة إذا قلنا إنّ هناك إعاقة بدنيّة ندركها بالأبصار و لكن هناك إعاقة نفسيّة صعب إدراكها كالعلاقة المختلّة بين صاحب الخبز الحافي وأمّه ، فالأم من المفترض أن تكون مصدرا للحنان ولكلّ العواطف الإنسانيّة النبيلة ، وهذا ما لم نلمسه في علاقة محمد شكري بوالدته رغم أنه حاول مجاهرا و دون خجل أن يسقط على علاقته بأمه صفة الأم الشّرسة marâtre ، (17) كتلك العلاقة التي كتب عنها الروائي الفرنسي جول فاليس واصفا فيها امرأة شريرة وعلاقتها بطفلها المسكون بهواجس الخوف والرّعب بسبب أقرب الناس إليه ، من أمّه الشرسة الطباع ومن جملة الأوامر التي تلزمه بتنفيذها يوميّا ، بحيث صار الطفل يتحرّى أمره ويتفقّد تصرّفاته في كلّ لحظة عساه الاّ ينسى تعليمة من تعليماتها القاسية وبذلك يتجنّب شرّها، إذْ يستهلّ الكاتب روايته بضرب الأم لابنها ، وهذا الاستهلال وحده كافٍ لتنتفي معاني الأمومة وتتحوّل إلى كابوس متسلّط على وعي الطفل المسكين الذي افتقد أجمل مكان في الوجود وهو حضن أمّه .

كثير من الروائيين الجزائريين الذين تناولوا عرَضا تيمة الأم في الرواية السيرية ولكن وفق اشتراطات الكتابة البيوغرافيّة حيث تتماس الرواية مع السير ذاتيّة " إذْ اتّخذ الكثير من الروائيين الجزائريين من ذواتهم مرجعا أساسيّا لممارساتهم الإبداعية ، يصوّرون خلالها المغامرات الفرديّة التي قاموا بها . " (18) ومن هؤلاء الروائي الجزائري واسيني الأعرج في سيرته الذّاتيّة (سيرة المنتهى عشتها .. كما اشتهتني) يتحدّث فيها الكاتب بطلاقة وبسردية فانتازيّة، عن طفولته و تعليمه الأول وعن أصول أجداده الموريسكيّة وعن والهجرة الأندلسيّة الأولى نحو شواطئ الجزائر وعن جدّته وأخواته وأمّه التي قال عنها نبيل سليمان :" فلتكن أولاً الأم (ميما أميزار) التي نذرت نفسها لتربية الكاتب وإخوته بعد استشهاد والده. ومما يستردّه الكاتب من حضور الأم في طفولته، مرافقته لها إلى حمام النساء (حمام الخالة وردة) حيث يتلبس الطفل الذي تدعوه شقيقته (لزعرالحمصي) (19) ، وإذا كانت جدّة الكاتب لعبت دورا كبيرا في تنشئة الطفل (واسيني) ورعايته بحكم أفضلية الذّكر على الأنثى في المجتمعات التقليديّة ،ولكونه الوحيد وسط مجموعة من الإناث ، فكانت الأمّ المعنوية الأولى؛ تتفوّق على والدته الحقيقية وحين افتقدها الكاتب استسلم لمشيئة الله لأنه لم يفتقد جدّته حنا فاطنة فقط بل افتقد جزءا من طفولته أيضا ." فُجِعت بالفعل بأنّ الجزء الأهمّ من عائلتي كان قد ترك الأرض ليسكن هذا المبهم الذي تحضر فيه كلّ الأشياء وتغيب وفق نظامها الخاص ، استغربت داخل هذه الحالة من الصّمت المقلق ، غياب حنا فاطنة . لكني أرجعت ذلك لنظام الكينونة ومشيئتها فقد كانت برتبة أمّي . " (20)

يبدو أنّ الكاتب مرتبط وجدانيّا بجدّته التي تشكّل أمّه الأولى ، فاستحضر ذكرياته الطفولية معها وكان يتمنى أن تكون حاضرة مع هذا الجمع من العائلة ولكن هذه هي الأقدار ، وفي لحظة عابرة تذكّر والدته الحقيقيّة البيولوجيّة التي تعبت هي الأخرى من أجله أيضا حين كان صبيا في المدرسة القرآنيّة ولكن نلاحظ أن الكاتب لم يتذكّر من علاقته معها إلاّ جُزئيّة منها المتمثّلة في خدمتها له وهي ترافقه إلى المدرسة ذهابا وإيابا خوفا عليه ، وهذه الخدمة في الحقيقة يمكن أن تضطلع بها أيّة امرأة أخرى غير أم الطفل ، و يمكن أن يُفسّر ذلك أنّ الجدّة حنا فاطنة قد استحوذت على الجزء الأكبر من عواطف واسيني الطفل . " ... أردت أن أقبلهم جميعا ، وأن أقبل رجل أمّي التي انسلخت ركضا من أجل تعليمي ، وأقبل رأسها ، أمدّ لها عنقي لقبلة الخير والوداع المؤقت ، كما تعوّدت أن تفعل معي دائما كلما استعددت لمغادرة البيت بعد زيارتها ، زَارِعَةً دفئا غريبا في جسدي المتعب . اشتهيت أن أقبّل رأس حنا لو كانت التحقت بالمجموعة وأطلب الصفح منها يوم بعثتني أقرأ القرآن في المدرسة القرآنيّة ، عند سيدي سعيد فعدت لها بكتاب مسروق من الجامع اسمه ألف ليلة و ليلة وظلّت حتى موتها تعتقد أنه القرآن الذي سيفتح أمامي أبواب الكتابة عن أجدادي الأندلسيين . " (21) ، وفي الأخير يحاول الكاتب أن يُقدّر تضحيات والدته في الحياة وخاصة أنّ والده قد استشهد أيام الثورة التّحريرية وترك أمّه شابة تضحي في الحياة من أجل أطفالها الصغار ، ومن هنا عنّ للكاتب أن يسأل سؤالا بأثرٍ رجعيّ يستمدّ معالمه من الذّاكرة البعيدة ؛ويعيده هذا السؤال لأيام الطفولة ، وكأنّه بذلك يريد نوعا من الاعتراف والإنصاف لهذه المرأة التي تحمل صفة (الأم) ولكن لا تحمل رتبتها التي خطفتها منها حنا فاطمة (جدة الكاتب) ، فمن خلال سؤال الطفولة البريئة مرّر الكاتب رسالة اعتراف بالجميل والاحترام لامرأة فقدت زوجها إبان الثورة التحريرية وباستشهاده أخذ معه شبابها ،وأخذت منها حنا فاطنة ابنها الوحيد الذي لم يعد يكترث بها إلاّ على سبيل المجاملة أو ملء الفراغ الذي تركته حنا فاطنة الجدة المتوفاة ." ..أن أرجو أبي أقول له ضع المنشفة الكبيرة على رأسي لأتجرأ وأسأله أصعب

وأقسى سؤال . أمّي غفرت له وأنا لم أفهمه : لماذا تركت أمّي وحيدة يا أبي ؟ "(22) ، إذن بحكم أنّ أسلوب الكتابة السيريّة تتحكّم فيه بعض الخصائص الفنيّة الإجرائيّة التي تلتزم الطريقة الكرونولوجيّة وما تستوجبه من توقّف إجباريّ عند مرحلة الطفولة وما يتّصل بها، وهنا تأتي الأم في سياق الحديث العرضي ،لا يتوقّف عنده الكاتب طويلا إلاّ في مواقف ضيّقة لا يمكن أن تشكّل دائرة انشغال قمينة بالحديث عنها .

يقول ابن عربي " إذا أردت أن تحبّ الأشياء فأنّثها " ، وما بالك إذا كان هذا الشيء المؤنّث أصلا هو الأم في صورته الرّاقية وفي جماليته المتماهية مع الكون ، قيل إنّ المهندس الفرنسيّ ألكسندر غوستاف إيفل (1832 . 1923) ، حين عزم على تصميم تمثال الحرية في مدينة نيويورك على شكل امرأة تحمل باليد اليمنى مشعلا إلى الأعلى وباليد اليسرى تضمّ كتابا ، فقد استلهم تقاسيم وجه هذه المرأة من أمّه الحقيقية التي تستولي على وجدانه وتؤنّث مخياله (*) إذن فالأم حالة وجدانيّة غائرة في كينونة نفس الإنسان لا تقدّر قيمة وجودها بثمن ، و قد لا يعرف الأبناء قيمة حضورها إلاّ حين تغادر الحياة إلى الأبد .

الإحـالات :

(1). ينظر: جورج طرابيشي،رمزية المرأة في الرواية العربيّة ودراسات أخرى،دار الطليعة ،ط1 ،بيروت1981 ،ص164 وما بعده .
(2). سيزا قاسم ، بناء الرواية ، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ ، الهيئة المصريّة العامة للكتاب ، القاهرة 2004، ص74 .
(3). نجيب محفوظ ، بين القصرين ، مكتبة مصر، (د.ت)،ص6.
(4). الرواية ،م ن ،ص9 .
(5). نجيب محفوظ ، الرؤية والأداة ،عبد المحسن طه بدر، دار الثقافة للطباعة والنشر،القاهرة 1978 ، ص466 .
(6). نجيب محفوظ ، بداية ونهاية ، الأعمال الكاملة ، الجزء الرابع ، المكتبة العلمية الجديدة ، بيروت (د.ت) ،ص 682.
(7). الطيب صالح ، موسم الهجرة إلى الشمال ، دار العودة ، بيروت1969،ص23.
(8). الرواية م ن ، ص27.
(9). عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر(د.ت) ،ص 202.
(10). ينظر : طاهر وطار، رمانة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر 1981،ص9 .
(11). الرواية ، م ن ، ص53.
(12). خيري شلبي ، الوتد ، دار الشروق، بيروت2012 ،ص3،4.
(13). محمد ديب ، الثلاثية (الدار الكبيرة،والحريق، والنول ، ترجمة سامي الدوروبي ، دار الوحدة بيروت 1985،ص47،48 .
(14). الرواية، م ن ، ص25 .
(15). محمد شكري، الخبز الحافي ،نشر الفنك ، الدار البيضاء ،2009،ص8.
(16). الرواية ، م ن ، ص24،25.
(17). المنهل ،جبور عبد النور،سهيل إدريس،دار الآداب ، دار العلم للملايين ، بيروت1979،ص643.
(18). عمري بنو هاشم ،التجريب في الرواية المغاربية ، الرهان على منجزات الرواية العالميّة ، دار الأمان الرباط ، المغرب 2015، ص99.
(19). ينظر: نبيل سليمان ،واسيني يكتب سيرته كما يشتهي ،جريدة الحياة،بتاريخ 16/مارس2015 .
(20). واسيني الأعرج ، سيرة المنتهى عشتها ... كما اشتهتني ،دار بغدادي للطباعة والنشر والتوزيع ،الجزائر2015،ص114.
(21). واسيني الأعرج ، م ن ،ص115.
(22). الرواية ، م ن ، ص115.

.(*). ويقع تمثال الحرية قبالة سواحل مدينة نيويورك الأمريكيّة ،وتمّ تدشينه عام 1885 ، وهو عبارة عن هدية أهدتها فرنسا للولايات المتحدة الأمريكيّة بمناسبة احتفالها بالذكرى المئوية الأولى لاستقلالها .